الأمر ما يبعث على دهشة أو عجب ! ...

لا تجدن مسنا إلا يصدف عما يذكره بعلو سنه ، واستبانة الشيخوخة فيه ، فهو عن تلك المشاهد معرض ، ومن تلك المعالم نفور ... فيم إقباله على شيء يريه الفناء دانياً منه ، وحب البقاء فى نفسه غريزة قاهرة وطبع غلاب ؟... أما الشاب الذى هو فى إقبال من العمر ، وفتوة من السن ، فعلام خشيته من مخايل الشيخوخة ومعالم الهرم ؟... وكيف لا يطيب له أن يتلهى بمرآها وإنها لتبدو لعينيه طريفة تجتذب المشاعر وتستهوى القلوب ؟ ...

ثمة تجاوب وتجاذب بين النقيضين من شباب وشيب ، وإن سر الحياة ليكمن فى هذا التآلف بين المتناقضات ، أو بالأحرى ما يلوح لنا أنه من المتناقضات ، فبهذا التآلف العجيب يسمو ذلك الصرح العظيم ، صرح العالم المعمور ! ...

وقفت مليا أتوسم أصدقائى الشيوخ فى مملكة النبات ... لا ريب أنك تحس لتلك الأدواح العظام خشوعا وهيبة ولكنك لا تستطيع أن تدفع عن نفسك الشعور نحوها بعاطفة الرثاء والاشفاق ... أنت أمام طائفة من أعجاز ضخمة ، وجذوع جهمة ، تحاربت عليها التجاعيد والأخاديد ، حتى طمست ما لها من ملامح وسمات ، وهذا أديم الأرض من حولها يتآكل ويتخلخل ، فيكشف